صديقي الأول

من ذكريات العيد في القرية

سأترك العيد الذي بزغ سناه اليوم في هلال شهر شوال إلى الناعمين الغارِّين من براعم الصبا وأزهار الشباب، فإن العيد صحة وزينة وبهجة ومتعة، والشيوخ لم يعد لهم من كل أولئك شيء. لم يعد لهم إلا الذكريات الحلوة تعاودهم من عيد إلى عيد. وقد عاودتني في صباح يوم الفطر وأنا أنظر بعيني الكليلة من شرفة البيت إلى زمر الأطفال يمرحون في أنوابهم الجديدة، ويلهون بألعابهم المختلفة، ذكرى من ذكريات القلب في الطفولة، وصورة من صور العيد في القرية، لا أزال أجد أثرهما في النفس حيًا على موت الذاكرة، جديدًا على بلى العمر. فأنا أتخيلهما اليوم كما أتخيل حقيقة الواقع، وأتمثلهما الساعة كما أتمثل حوادث الأمس.

كان ذلك وأنا في العاشرة من عمري، أغدوا إلى الكتاب في الصباح وأروح إلى البيت في المساء، ومعي في الغدو والرواح رفيق من لداتي في السن ومن جيرتي في الحارة، لا نكاد نفترق بياض النهار وقليلا من سواد الليل... كان هذا الرفيق هو صديقي الأول في المرحلة الأولى من مراحل العمر. وكنت أحبه دون سائر الرفاق لمشابه بيني وبينه في الخلق والطبع والهيئة، فضلا عما كان يتميز به من وسامة تلوح على وجهه، ووداعة تشع من عينه، ورقة تشيع على فمه، وطيبة تنبعث من قلبه. كان رفيقا في لعبه فلا يعمد إلى الخشونة، عفًّا في حديثه فلا يميل إلى الفحش، مؤثرا لإخوانه فلا يخص نفسه بلعبة أو متعة، فكرُته لكل لاعب، وكتابه لكل قارئ، وعونه لكل محتاج. وكان مقيما للصلاة في أوقاتها الخمسة. فإذا أقبل شهر رمضان تعاقبنا التبليغ وراء سيدنا، وهو يصلي التراويح إماما في بيت الله، وتناولنا تلاوة القرآن معه وهو يحيى رمضان قارئا في بيت العمدة.

كان أبوه الفلاح النجار من الأجراء (التملية) في تفتيش علي باشا شريف، لا نزيد يوميته على ثلاثة أرباع القرش، ولا سنويته على فدا من أرض الدائرة يزرعه شعيرا أو ذرة. لذلك كان لا يملك من الثياب إلا جلبابا واحدا يشتريه له أبوه في العيد الصغير

فيلبسه على اللحم العام كله لا يبدله. وكان يحرص على صيانة هذا الجلباب أشد الحرص، فلا يمزقه باللعب العنيف ولا يبليه بالغسل البالغ. ومع ذلك كان راضيا مطمئنا لا يمد عينه إلى متعة ولا يحسد غيره على نعمة.

* * * * *

ذهبت أيام رمضان الغر ولياليه الطهر من تلك السنة ذهاب النسمات الرخية هبت على الدنيا نم رياض الجنة فعطر الأنفاس ولطفت الطباع وقربت ما بين السماء والأرض. وأصبح يوم (الوقفة) فإذا الكهول والشباب من القرية يمتطون حميرهم في نشاط، ويسلكون طريق السوق في زياط، ليشتروا من المنصورة حاجة العيد من لحم و (فطرة). وكان أكثر الفطرة التمر والخروب وأقلها البندق وعين الجمل. وكان ضعاف الدين يسمون يوم (الوقفة) عيد الشباب، لأنهم كانوا يستميحون فيه الإفطار ليملأوا بطونهم بالمجان من أصناف الفطرة بحجة انتقاء الأجود منها قبل الشراء. وكان تجار النقل يتسامحون في هذا الاختيار – وإن أسرفوا فيه – استمالة لهواهم واجتلابا لسواهم. وكان من تخلف في القرية من النساء والأطفال ينتظرون رجوع العير بالإخراج الموقرة على صبر نافذ وشوق شديد. فإذا ما رجعوا نفحوا المتشوقين بقبضات مختلفات من التمر فيزقزق البنون ويزغرد البنات ويقع البيت كله في زياط شديد. ولكنهم يتذكرون أن رمضان الحبيب يلفظ أنفاسه الأخيرة مع الشمس الغاربة فتخشع الأصوات وتنهمل العبرات ويخامر الناس الخوف من انطلاق الشياطين المقيدة، فيجلس الصبيان على أبواب الحجرات يكررون البسملة ويضربون حديداً بحديد، حفظاً من دخول الشيطان مريد.

فإذا دوى مدفع الإفطار الأخير من البندر ورفعت صواني الطعام من الحارة، وقضيت صلاة المغرب في المسجد، خرج أهل القرية جميعاً إلى المقبرة مع كل أسرة فانوس يحمله الرجل وسبت من الفطير تحمله المرأة، حتى إذا بلغوها وضعوا المصابيح على أوجه القبور وجلسوا أمامها يستذكرون ويستعبرون وقد اختلط ندب النساء بتلاوة الفقهاء: أولئك يعددون مناقب الموتى بمراثيهن الموقعة، وهؤلاء يقرءون على كل قبر سورة يس بتلاوتهم المسرعة. ثم تعود القرية الحية من القرية الميتة ليتجهزوا للعيد

بجهازه فيقضون الهزيع الثاني من الليل في طسوت الاستحمام أو في دكان المزين. والاغتسال بالماء الحار لا يعرفه الفلاحون إلا ليلى العيد وليلة العرس ويوم الموت؛ ثم يعدون زينتهم فيكورون العمائم ويصبغون الأحذية. ومن لا يحسن لوث العمامة أو لا يملك علبة (الورنيش) ذهب بطربوشه أو حذائه إلى قريبه أو جاره، والقرية كلها أسرة واحدة يكمل بعضها نقص بعض. فإذا فرغوا من ذلك ناموا بقية الليل على هدهدة الأحلام ومناغاة المنى، وتركوا النساء أمام الأفران والكوانين ينضجن الخبز ويطهون اللحم ويصنعن الحلوى حتى الصباح.

* * * * *

فرغت أنا وصديقي عبد الحافظ النجار من قراءة ما تيسر من كتاب الله على أرواح موتانا ورأينا الناس ينصرفون فانصرفنا ولم يبق من شمعة فانوسي إلا عقب لا يكاد بنا الدار. وفي أثناء الطريق قال لي رفيقي بصوت خافت ولهجة حزينة: ربما لا أراك غدا فكل عام وأنت طيب. فقلت له وأنا أحدجه بنظري في استغراب ودهشة: ولم لا تراني يا عبده؟ لقد أعددت لك الكرة لتلعب والحبل لنتأرجح. فقال: لا أحب أن يراني الصبيان وليس على جسدي جديد ولا في رجلي حذاء، ولا في يدي قرش ولا في جيبي فطرة. لم يستطع أبي أن يحقق لي شيئا من ذلك لأنه مرض منذ ستة أشهر فانقطعت أجرته من وسية الباشا بانقطاع عمله.

فقلت له وأنا أربت على كتفه: هون عليك يا عبده فإن أكثر الأطفال على مثل هذه الحال. وما دمنا معا فكل شيء جديد، وكل يوم عيد. فقال لي بلهجة العزوم الصارم: لن أجعل الصبيان يشعرون أني أصغر منهم شأنا وأن أبي أضعف من آبائهم قدرة. وسأقضي مع أبي المريض وأمي البائسة وجدتي العجوز العيد الذي اختار، لنا القدر. فقلت له وقد يئست من صرفه عن عزمه: ليكن ما تريد. وسأعيد معهم ومعك.

وغدوت عليه في داره بعد صلاة العيد وزيارة المقبرة ووجبة الإفطار ومعي نصيبي كله من النقل والكعك، وقضينا يوما من أسعد الأيام نلعب بآلات النجارة، ونلهو بأوراق اللعب، ونستذكر ما حفظنا من السور القصيرة، ثم نركض وراء الكرة من الفناء إلى الحظية، ومن الحظيرة إلى الفناء. وذهبت فجئت بحبل المحراث وشددناه من طرفيه

إلى عرق غليظ في سقف الزريبة وأخذنا نتأرجح. وكان كل شيء في الدار مبتهجا بابتهاجنا مغتبطا لاغتباطنا. فالأب قد نسى مرضه وقعد القرفصاء يرامقنا بعين قريرة ونفس مطمئنة؛ والأم تركت عملها وجعلت تبارك مرحنا بالنظر الحنون والقلب العطوف، وتحمد الله على أن جاء العيد لابنها في الدار حين رفض أن يذهب إليه في القرية؛ والكلب الليف كاد يتبع خطواتنا من مكان إلى مكان، وهو ينبح كأنه يضحك، ويبصبص بذيله كأنه يجامل. والدجاجات قد أخلت لنا صحن الدار فجثمت تحدت الجدار القصير وأخلدت إلى السكون إلا إذا حركتها طبيعة الحياة فيصيح ديك أو تغوقئ دجاجة. حتى إذا قضينا حاجتنا من منع العيد كلها جلسنا عن جانبي الجدة الطيبة وألقينا إليها السمع لتساقط فيه الكلم العذب من (حدوتة) طويلة مشوقة حتى بدت جفنينا فترة النعاس فغفونا على حصيرتها إلى أن انطلقت مدافع الغروب على شاطئ المنصورة، ولعلع صوت أبي عامر على سطح الزاوية.

* * * * *

كان هذا العيد المحصور بين صحن الدار وحظيرة البقرة ومجلس الجدة أسعد من عيد الآخرين الطليق بين ساحة القرية ومجالي الحقول وملاهي البندر، لأنه كان عيد قلبين صغيرين لم تترسب فيهما أكدار الحياة بعد، فخلوا من الهم والحقد، وامتلأ بالرضا والغبطة. والأرض على رحبها تختصر أحيانا في مكان، والسعادة على تفرقها تجتمع كلها في وجودك مع إنسان. والصداقة الطفلية الأولى عميقة لأنها احتلت القلب على خلو، لاصقة لأنها خالطت الشعور عن جاذبية، باقية لأن حدثان الدهر تجري عليها وهي راسخة في القاع.

* * * * *

ظلت صداقتنا البريئة الحلوة تنمو مع مشاعرنا وعواطفنا ثلاث سنين طبعنا آثارها في المكتب وفي الملعب وعلى ضفاف بحر شبين حتى دها مصر وباء الكوليرا سنة 1902 فصحا أهل القرية يوما فإذا كل قرية فيها مريض، وإذا كل ساعة فيها جنازة. فهان الموت ورخصت الأموات حتى لا يعاد مختصر ولا يشيع ميت ولا يعزي حي.

كان الموت الوحي الزريع يتخطف جيرتي في الحارة واحدا بعد واحد، فخلت الملاعب من الأطفال والمصاطب من الرجال والمكاتب من الصبية. وهجم الوباء الهندي الأصفر على دار عبد الحافظ فاختطف والديه في أسبوع وبقيت الجدة على حصيرتها الخشنة تبكي الابن وتندب الكنة وتحنوا بأضلاعها الهشة على الحفيد؛ ولكن حنوها الشديد لم يدفع قضاء الله فأصبح عبد الحافظ يشكو ظمأ لا ينفعه ماء، وقيئا لا يمنع دواء وإسهالا لا يقطعه شيء، فعلمت جدته أنه الموت ! فضجت بالصراخ ورنت بالعويل. وسمع الجيران جزعها فشاركوها من بعيد. وكان أبي قد حرم علينا غشيان الدور ومخالطة الناس، ولكني تسللت إلى دار المريض العزيز فوجدته يكابد هول الداء وحده، فلا أبوه يخفف عن كبده سعار العطش، ولا أمه تمسح عن ثوبه رجع القيء، فأنهلت بوادر دمعي، وأحسست حرقة الحزن في صدري. وكان بيتنا يشرب الماء مغلي فلم يُصب أحد منا بسوء. فظننت أن الدواء في هذا الماء، فحملت منه قلة إليه كما حملت مثلها بالأمس إلى (زهرة) بنت لحارة صديقتي وصديقته. فلما رآها في يدي افترت شفتاه الذابلتان عن ابتسامة غائمة فجرعته منها جرعات. ثم جلست بجانبه أرطب حلقه اليابس بالقلة من لحظة إلى لحظة حتى وقف الماء فيه فلم يستطع أن يسيغه. ثم شخص بصره وحشرج صدره وأخذه فُواق ضعيف ثم لفه سكون شامل !.

أبداً لن أنسى هذين اليومين من حياة صديقي الأول: يوم قضيت معه يوم العيد وهو يقاسي هم الوحشة، ويوم قضيت معه يوم الموت وهو يكابد ألم الوحدة ! !.

واحسرتاه على قريتي الصغيرة؟ لقد أقبل عليها عيد الفطر في تلك السنة الحزينة والموت قد ختم على أكثر الدور، ونقل نصف أهليها من الدور إلى القبور.